الأقانيم.. مناقشة تحليلية

رفاعي سرور

دار هادف

الطبعة الأولى

1428-1429هـ

تحليل بدعة الأقانيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

وبعد....

هناك أساسيان يقوم عليهما الحسم السلفي لبدعة الأقانيم

الأول: مناقشة البدعة بالتصور السلفي لقضية الأسماء والصفات والأفعال، باعتبار أن الخلل الذي نشأت عنه هذه البدعة حدث في إطار هذه القضية، ضمن الخلل الذي أصاب كل قضايا النصارى.

الثاني: التأكيد على عبودية عيسى ابن مريم وروح القدس؛ لأن الادِّعاء بألوهيتهما هو موضوع هذه البدعة.

ومن التصور السلفي قد علمنا:

أن الذات واحدة.. وأن الذات لها صفات.. وأن الصفة إما صفة ذات أوصفة فعل.. وأن الصفة إما لازمة أو متعدية..

ويلزم من القول ببدعة الأقانيم أن يكون المسيح صفة للذات الإلهية.. مما يعني أن اتحاد الصفة «الكلمة» بالذات «الآب عندهم» نشأ عنه تغير الذات، حيث تولد أقنوم الابن «الكلمة» من أقنوم الآب «الذات»، وظهرت خصائص وصفات جديدة للآب «الذات» بتولد الابن.

وهو باطل لأن تعلق أي صفة بالذات لا يغير الذات، ولكن يغير الأفعال الناشئة عن تعلق هذه الصفة بها، فالذات لا تتغير.. ولكن الأفعال هي التي تتغير..

فالله رحيم، وتعلق صفة الرحمة بذات الله.. لا يغير ذاته سبحانه، ولكن تتغير أفعال الله بمقتضى رحمته، فتنشأ أفعال الرحمة بصورها المتنوعة.

وبذلك يكون الخطأ عند النصارى هو القول بأن الذات مع الصفة يكون لهما حكم خاص، تتغير فيه الذات والصفة، فيصبح الآب هو الابن، والابن هو الآب، ولا يكون الفارق بينهما إلا في المسمَّى والاختصاص.

وقد وقع النصارى في خطأٍ آخر، حين قالوا بالمساواة بين الأقانيم، وأن حكم الصفة مؤثر في الذات، فسوّوا بين الصفة والموصوف.

وحسب قولهم بالتسوية بين الذات والصفة. وإذا كان لكل أقنوم صفة فلا بد أن تكون صفته مثله..

وإذا كانت هذه الأقانيم آلهة، وكل صفة هي إله ومن جوهر هذا الأقنوم- فيجب أن تكون كل صفة لكل واحد من الثلاثة الأقانيم إلهًا مثله؛ إذ هي من جوهره.. فيتسع الأمر في ذلك إلى ما لا نهاية من الآلهة..!

وإذا قالت النصارى: إن المسيح هو الكلمة التي هي صفة الذات الملازمة لها منذ الأزل- انتفى معنى التولد باعتباره تولُّد شيء من شيء، إذ لا بد أن يسبق الوالد ما تولد منه، مما اضطرهم إلى الزعم بأن الابن يُراد به الابن بالوضع وهو المخلوق، والابن بالطبع وهو القديم الأزلي المولود غير المخلوق، وهذا التفريق هم أحدثوه وابتدعوه، ولا يوجد قط في كلام المسيح ولا غيره أنه سمَّى القديم الأزلي ابنًا، ولا جعل له ابنًا قديمًا مولودًا غير مخلوق، ولا سمَّى شيئًا من صفات الله قط ابنًا.

ومع ذلك فلم يخرجهم ذلك من التناقض؛ لأنهم سمَّوا الابن القديم الأزلي مولودًا أيضًا، وبذلك ينفي التولد صفة ملازمة الابن للأب، سواءً كان معنى التولد أزليًّا أو محدثًا.

وسواءً كانت الولادة بمعناها المجازي أو الصريح فلا يخرج معناها عن أصل يتفرع منه فرع، وإلا لم يعد لها أي معنى أصلاً..!

وإذا قال النصارى أن المسيحَ صفة فعلٍ لله فهذا يقتضي أن يكون المسيح هو جميع كلام الله، وليس كلمةً واحدةً فقط..!

وإذا قال النصارى: إن الابن وروح القدس صفتان لازمتان «العلم» أو «الحكمة» فإن اختيار العلم والحياة للأقنومية لأجل الملازمة دليل على التناقض؛ لأن الصفة اللازمة هي التي لا تتعدى إلى الفعل والخلق.

فإذا كان الابن صفة لازمة «الحكمة» أو «العلم» كان روح القدس هو الآخر ابنًا؛ لأنه صفة لازمة «الحياة»..!

فالمسيح جوهر قائم بنفسه، والكلام صفة قائمة بالمتكلم، وليس هو نفس الرب المتكلم، فإن الرب المتكلم هو الذي يسمونه الآب، والمسيح ليس هو الآب عندهم -بل الابن- فَضَلُّوا في قولهم من عدة جهات..

- من جهة **جعل الأقانيم ثلاثة**.. وصفات الله لا تنحصر في ثلاث..!

ومن جهة **جعل الصفة خالقة**.. والصفة لا تخلق..!

وتدور بدعة الأقانيم حول عدة مسائل:

- الأزل والقدم
- الاتحاد والانفصال
- المساواة في الجوهر والطبيعة والمشيئة

الأزل والقدم:

ومسألة الأزل والقدم متعلقة ببداية الخلق، وهي من أخطر قضايا النصارى؛ لأن ابتداء وجود الابن متعلق بتفسير الأزل، والنصارى يقولون بأن الولادة ليست بترتيب زمني، ويفسرون ذلك بأن الابن كان مع الآب منذ الأزل، وأن الآب لم يسبق الابن..!

ويؤكد النصارى هذا القول تأكيدًا جازمًا فيقولون: (وأما الذين يقولون: إنه

كان زمان لم يوجد فيه.. وإنه لم يكن له وجود قبل أن يولد.. وإنه خُلق من العدم..أو إنه مادة أو جوهر واحد.. أو إن ابن الله مخلوق.. أو أنه قابل للتغيير أو متغير..

فهم ملعونون من الكنيسة الجامعة الرسولية..).

وقد جمعت هذه العبارات بين عناصر البدعة ونقيضها في نفس الوقت..!

كأن يدَّعوا أن النطق كان منذ الأزل.. وهذا ينفي أن يكون معنى النطق هو الولادة؛ لأن الولادة خروج شيء من شيء، فلا بد أن يسبق الوالد المولود الذي خرج منه..!

وأما الأزلي الذي لم يزل ولا يزال فيمتنع عندهم وعند سائر العقلاء أن يكون ممكنًا يقبل الوجود والعدم، بل كل ما قبل "بكسر الباء" الوجود والعدم لم يكن إلا محدثًا، وهذا مما يستدل به على أن كل ما سوى الله فهو محدث مسبوق بالعدم كائن بعد أن لم يكن.

(أَوَلا يَذْكُرُ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شيئًا) [مريم: 67].

وقد **عالج التصور السلفي قضية بداية الخلق** باعتبارها نفيٌ لاتخاذه سبحانه ولدًا، وإثبات لاسم الله «البديع»، وفي ذلك يقول الله عز وجل: **(وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ ولدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ. بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)** [البقرة: 116-117].

(بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [الأنعام: 101].

واسم الله «البديع» يثبت الأولية لله سبحانه.. وكما تثبت الأولية تكون

الآخرية..

يقول الله عز وجل: **(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** [الحديد: 3].

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء.. وأنت الآخر فليس بعدك شيء.. وأنت الظاهر فليس فوقك شيء.. وأنت الباطن فليس دونك شيء**»(1).

وبذلك ارتبطت بداية الخلق مع نهايته كما في قوله تعالى: **(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)** [الأنبياء: 104].

ولذلك كان **أخطر ما يفسد الاعتقاد في قضية بدء الخلق**: هو الادِّعاء الباطل بأن لله ولد؛ لأن مضمون بداية الخلق هو مضمون النهاية.. كما قال سبحانه: **(كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ)** [الأنبياء: 104].

وأهم عناصر المضمون في بدء الخلق ونهايته: هو أن الله (هو الأول والآخر.. والظاهر والباطن) وادِّعاء أن الابن مع الآب منذ الأزل، وأنه سيبقى مع الآب- يعني أن الله ليس الأول وليس الآخر..!

وقد بدأ الانحراف عند النصارى من هذه البداية بفكرة أن الابن هو «بكر الخلائق» أي: أولها، والحد الزمني للخلق هو الذي ينفي فكرة الولد الموجود مع الأب منذ الأزل؛ لأنهم بذلك أخرجوا عيسى من حد الزمن.

وفي هذا الإطار جمع الحديث القدسي بين ذكر ادِّعاء الولد لله، والتكذيب

(1) أخرجه مسلم (2713) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بإعادة الخلق بعد بدايته، مما يدل على أن القضيتين ترتبطان معًا بعلاقة جوهرية..

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يقول الله عز وجل: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفوا أحد**»[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: «**ليس أحد -أو ليس شيء- أصبر على أذى سمعه من الله.. إنهم ليدَّعون له ولدًا.. وإنه ليعافيهم ويرزقهم**»[2].

ولذلك أورد الإمام البخاري في كتاب بدء الخلق حديث: «**كان الله ولم يكن شيءٌ غيره**»[3].. وفي رواية: «**ولم يكن شيء قبله**» [4]، ثم الحديث القدسي: «**شتمني ابن آدم**».

فذكر الحديث في كتاب «بدء الخلق».. يدل على أن قضية بدء الخلق تمثل أساسًا ثابتًا لفهم حقيقة أن الله ليس له ولد..

ولذلك قال الإمام ابن حجر: («**يشتمني ابن آدم**»، الشتم هو الوصف بما يقتضي النقص، ولا شك أن دعوى الولد لله تستلزم الإمكان المستدعي للحدوث، وذلك غاية النقص في حق الباري سبحانه وتعالى).

من أجل ذلك تحددت قضية خلق عيسى ابن مريم لتكون داخلة بإحداثياتها فيما بين بداية الخلق ونهايته، فذكر القرطبي في تفسير قول الله عز وجل: (**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ**

---

(1) أخرجه البخاري (4122) عن ابن عباس، و(4592، 4593) عن أبي هريرة.

(2) أخرجه البخاري (5748، 6943)، ومسلم (2804) كلاهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(3) أخرجه البخاري (3019).

(4) أخرجه البخاري (6982).

بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) [لأعراف: 172]: (روح عيسى ابن مريم من تلك الأرواح التي أخذ الله عليها الميثاق في زمن آدم).

وكما حسم القرآن بدعة ادِّعاء الولد لله من خلال إثبات أولية الله عز وجل.. حسمها أيضًا من خلال إثبات العدم للخلق قبل الإيجاد والخلق.. ، حيث جاء هذا الإثبات من خلال قضية عيسى في سورة مريم: **(أَوَلا يَذْكُرُ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شيئًا)** [مريم: 67].

وبذلك يتبين أن حسم قضية ادِّعاء الولد لا يكون إلا بمنهج الأنبياء، ولا يكون كذلك إلا بكلامهم وألفاظهم.

فلفظ «القديم» في اللغة المشهورة التي خاطبنا بها الأنبياء يراد به ما كان متقدمًا على غيره تقدمًا زمانيا، سواء سبقه عدم أو لم يسبقه، كما قال تعالى: **(وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ)** [يس: 39]، وقال تعالى: **(قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ)** [يوسف: 95]، وقال الخليل: **(أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)** [الشعراء: 75-77]..

والمقصود هنا: أن معرفة اللغة التي خاطبنا بها الأنبياء وحُمِل كلامهم عليها أمرٌ واجبٌ متعينٌ، ومن سلك غير هذا المسلك فقد حرَّف كلامهم عن مواضعه، وكذب عليهم وافترى.

فأهل الكتاب نقلوا عن الأنبياء أنهم تكلموا بلفظ الآب والابن، ومرادهم عندهم بالأب الرب وبالابن المصطفى المختار المحبوب، ولم ينقل أحد منهم عن الأنبياء أنهم سمُّوا شيئًا من صفات الله ابنًا ولا قالوا عن شيء من صفاته أنه تولد عنه، ولا أنه مولود له.

فإذا وجد في كلام المسيح عليه السلام أنه قال: عمدوا الناس باسم الآب والابن وروح القدس، ثم فسروا الابن بصفة الله القديمة الأزلية- كان هذا كذبًا بينًا على المسيح، حيث لم يكن في لغته أن لفظ الابن يراد به صفة الله القديمة الأزلية.

وكذلك إذا لم يكن في كلام الأنبياء أن حياة الله تُسمَّى روح القدس، وإنما يريدون بروح القدس ما ينزله الله تبارك وتعالى على الأنبياء والصالحين ويؤيدهم- كان تفسير قول المسيح: روح القدس أنه أراد حياة الله كذبًا على المسيح.

ونلخص ما سبق فنقول:

أن الولادة والبنوة تقتضي وجود سبق زمني بين الأقنومين، وأن محاولة تفسير العلاقة بينهما بأي وصف آخر كالعلة والسببية للهروب من إثبات هذا الفرق الزمني- لا يُخرج صاحبه من المأزق؛ لأن العلة تسبق المعلول زمنيًّا وإن اتصلا في الوجود، وأحدهما سابق للآخر، حتى ولو لم يكن بينهما فرق زمني محسوب، وبهذا لا يستحق أقنوم «الابن» -حسب ادعائهم- وصف القدم والأزل بأي وجه من الوجوه.

الاتحاد والانفصال

قالوا: واختلف قولهم في الاتحاد اختلافًا متباينًا..

يقول الإمام ابن تيمية: (زعم قوم منهم أن الاتحاد: هو أن الكلمة التي هي الابن حلت جسد المسيح، وهو قول الأكثرين منهم.

وزعم قوم منهم: أن الاتحاد هو الاختلاط والامتزاج.

وقال قوم : هو أن كلمة الله قد انقلبت لحمًا ودمًا بالاختلاط.

وقال كثير منهم : هو أن الكلمة والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط الماء

بالخمر وامتزاجهما، وكذلك الخمر باللبن.

ثم قلتم في أمانتكم (1): إنه تجسم من روح القدس أو منه ومن مريم، وهو إنما تجسم عندكم من الكلمة التي سميتموها الابن دون روح القدس..

وإن كان تجسم من روح القدس فيكون هو روح القدس، لا يكون هو الكلمة التي هي الابن.

ثم تقولون: هو كلمة الله وروحه، فيكون حينئذ أقنومين: أقنوم الكلمة وأقنوم الروح، وإنما هو عندكم أقنومًا واحدًا..!)

(وهم يجعلون الأقنوم اسمًا للذات مع الصفة، والذات واحدة، والتعدد في الصفات لا في الذات، ولا يمكن أن تتحد صفة دون الأخرى، ولا دون الذات.

فيمتنع اتحاد أقنوم أو حلوله بشيء من المخلوقًات دون الأقنوم الآخر، ولا إثبات ثلاثة أقانيم ولا إثبات ثلاث صفات دون ما سواها، ولا إثبات إله حق من إله حق، ولا تسمية صفات الله مثل كلامه وحياته.. لا ابنًا ولا إلهًا ولا ربًّا، ولا إثبات اتحاد الرب خالق السموات والأرض بشيء من الآدميين، ولا حلول ذات وصفة دون ذات مع الصفات الأخرى، بل ولا حلول نفس الصفة القائمة به في غيره.. لا علمه ولا كلامه ولا حياته ولا غير ذلك).

ثم يفند الإمام رحمه الله عقيدتهم هذه من عدة وجوه، نقتصر منها على وجهين:

الوجه الأول: أن يقال لهم -حسب اعتقادهم-: إن المتحد بالمسيح إما أن يكون هو الذات المتصفة بالكلام أو الكلام فقط..

---

(1) يقصد بها ما يُسَمَّى بـ «قانون الإيمان» عند النصارى، وهو ما كانوا يطلقون عليه قديما: الأمانة.

أو بعبارة أخرى: إما الكلام مع الذات.. وإما الكلام بدون الذات..

فإن كان المتحد به الكلام مع الذات كان المسيح هو الأب وهو الابن وهو روح القدس وكان المسيح هو الأقانيم الثلاثة، وهذا باطلٌ باتفاق النصارى وسائر أهل الملل وباتفاق الكتب الإلهية، وباطلٌ بصريح العقل.

وإن كان المتحد به هو الكلمة فقط فالكلمة صفة والصفة لا تقوم بغير موصوفها، والصفة ليست إلهًا خالقًا والمسيح عندهم إلهٌ خالقٌ، والصفة لا تخلق ولا ترزق وليست الإله، والصفة لا تقعد عن يمين الموصوف، والمسيح عندهم صعد إلى السماء و(جلس عن يمين أبيه)..

الوجه الثاني: أن الذات المتحدة بناسوت المسيح.. إن كانتا بعد الاتحاد ذاتين وهما جوهران كما كانا قبل الاتحاد.. فليس ذلك باتحاد..!

وإن قيل: صارا جوهرًا واحدًا -كما يقول من يقول منهم: إنهما صارا كالنار مع الحديدة أو اللبن مع الماء- فهذا يستلزم استحالة كل منهما وانقلاب صفة كل منهما؛ بل حقيقته، كما استحال الماء واللبن إذا اختلطا، والنار مع الحديد، وحينئذ فيلزم أن يكون اللاهوت استحال وتبدلت صفته وحقيقته، والاستحالة لا تكون إلا بعدم شيء ووجود آخر، فيلزم عدم شيء من القديم الواجب الوجود بنفسه..

وما وجب قدمه استحال عدمه، وما وجب وجوده امتنع عدمه، فإن القديم لا يكون قديمًا إلا لوجوبه بنفسه، أو لكونه لازمًا للواجب بنفسه..

وبهذين الوجهين تنتفي فكرة الاتحاد التي زعمها النصارى.. ويبقى أن نثبت الانفصال الذي حاولوا جاهدين نفيه للإبقاء علي زعمهم.

يقول مؤلف علم اللاهوت النظامي: (كلمة «أقنوم» كلمة سريانية تدل على من يتميَّز عن سواه، بغير انفصال عنه).

فَعَرَّف كلمة «الأقنوم» بالشيء ونقيضه..

لأن مجرد التميز بالصفات أو الخصائص -حتى مع زعم وحدة الطبيعة والجوهر- لا يعني سوى الانفصال الذي حاول أن ينفيه.

وفضلا عن عشرات النصوص المبثوثة في الأناجيل، التي تدل دلالة قاطعة على الانفصال، نركز هنا على دليلين اثنين:

الأول: أن انبثاق روح القدس من الآب يختلف عن تولد الابن منه

فالابن مولود من الآب، بينما روح القدس منبثق، والانبثاق معناه التولد من الجمع، مثل انبثاق الماء، وهذا يثبت الفارق بين الابن «المتولد»، وروح القدس «المنبثق».

والثاني: ما زعموه من صعود الابن والجلوس عن يمين أبيه

يقول مرقس: (إن الرب بعدمًا كلمهم ارتفع إلى السماء، وجلس عن يمين الله) [19/16].

فيقول النصارى: إن الله سبحانه وتعالى اتحد بالمسيح، وأنه صعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب.

يقول ابن تيمية: (وعندهم أن اللاهوت منذ اتحد بالناسوت لم يفارقه، بل لما صعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب كان الصاعد عندهم هو المسيح الذي هو ناسوت ولاهوت إله تام وإنسان تام، فهم لا يقولون: إن الجالس عن يمين الأب هو الناسوت فقط بل اللاهوت المتحد بالناسوت جلس عن يمين اللاهوت، فأي تبعيض وتجزئة أبلغ من هذا، وليس هذا من كلام الأنبياء حتى يقال: إن له معنى لا نفهمه، بل هو من كلام أكابرهم الذي وضعوه وجعلوه عقيدة إيمانهم، فإن كانوا تكلموا بما لا يعقلونه فهم جهال لا يجوز أن يتبعوا، وإن كانوا يعقلون ما قالوه فلا يعقل أحد من كون اللاهوت المتحد بالناسوت جلس عن يمين اللاهوت المجرد عن الاتحاد، إلا أن هذا اللاهوت المجرد منفصل مباين

للاهوت المتحد وليس هو متصلاً به، بل غايته أن يكون مماسًا له، بل يجب أن يكون الذي يماس اللاهوت المجرد هو الناسوت مع اللاهوت المتحد به، فهذا حقيقة التبعيض والتجزئة مع انفصال أحد البعضين عن الآخر).

والنسبة المكانية الصارخة في كلمة: «عن يمين» تدل على الانفصال.

المساواة في الجوهر:

يضطرب النصارى اضطرابًا بالغًا عند الحديث عن العلاقة بين أقانيمهم المزعومة، من حيث المساواة.. وخصوصًا عندما يحاولون تأويل النصوص القاطعة بوجود فرق بين الآب والابن..

ومن هذه النصوص[1]:

- ما جاء في كتاب «مرقس» عن ميعاد يوم القيامة: (وأما ذلك اليوم وتلك الساعة.. فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن.. إلا الآب) [33/13].

- ما جاء في كتاب «يوحنا» عن جزاء من يؤمن برسالة المسيح يوم القيامة: (وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني: أن كل ما أعطاني لا أتلف منه شيئًا، بل أقيمه في اليوم الأخير؛ لأن هذه هي مشيئة الذي أرسلني أن كل من يرى

---

(1) لا يعني استشهادنا بهذه النصوص أننا نسلم بأنها من كلام المسيح عليه السلام، وإنما أوردناها من باب إفحام الخصم. وينبغي التنبه إلى أنها مترجمة عن نسخ يونانية، تم ترجمتها أصلاً عن الآرامية لغة المسيح وقومه.

ويلاحظ القاريء لهذه النصوص أن استخدام المجاز يغلب عليها، وأنها قد ترجمت ترجمة مشوهة غير أمينة، فمثلاً: كلمة "الآب" في الأصل الآرامي أقرب إلى معنى «الرب».

الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير) [6/40-41].

- ما جاء في كتاب «يوحنا»: (الحق الحق أقول لكم: إنه ليس عبد أعظم من سيده، ولا رسول أعظم من مرسله) [13/17].

- ما جاء في كتاب «يوحنا» على لسان المسيح مخاطبًا اليهود: (لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم، ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله، هذا لم يعمله إبراهيم، أنتم لا تعملون أعمال أبيكم..

فقالوا له: إننا لم نولد من زنا.. لنا أب واحد وهو الله..

فقال لهم يسوع: لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني.. لأني خرجت من قِبَلِ الله، وأتيت لأني لم آت من نفسي، بل ذاك أرسلني، لماذا لا تفهمون كلامي.. لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي، أنتم من أب هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا، ذاك كان قَتَّالا للناس من البدء ولم يثبت في الحق؛ لأنه ليس فيه حق، متى تكلم بالكذب.. فإنما يتكلم مما له؛ لأنه كذاب وأبو الكذاب، وأما أنا.. فلأني أقول الحق، لستم تؤمنون بي. من منكم يبكتني على خطيئة؟! فإن كنت أقول الحق.. فلماذا لستم تؤمنون بي؟ الذي مِنَ الله.. يسمع كلام الله، لذلك أنتم لستم تسمعون.. لأنكم لستم من الله) [8/40].

وردًّا على الدلالة الصارخة لهذه النصوص الجازمة بعدم المساواة بين الأقانيم المزعومة، يقول مؤلف اللاهوت النظامي: (نجيب: كل هذه الآيات لا تنفي علاقة المسيح بالآب في الثالوث الأقدس، بل تشير إلى أن الابن من حيث كونه إنسانًا مُرسلاً من الله لإتمام الفداء هو دون الآب في العلاقة التي بينهما؛ لأنه مُرسَل من قِبل الآب ليتمم مشيئته بالتجسُّد، وتقديم نفسه كفارةً عن البشر. ثم نال منه جزاء عمله، وتقلَّد سلطانًا خاصًّا، وهو أنه جلس عن يمينه كملك

الكون إلى أن يتمم كل ما يتعلق بالفداء، ثم يسلّم الملك إلى الآب. غير أن ذلك لا يناقض أنه إله، بل يشير إلى علاقته بالأقنوم الأول من اللاهوت في إتمامه عمل الفداء، وهي علاقة المرسَل بمرسِله. فهو دون الآب في العمل لا في الجوهر الإلهي، والآب أعظم منه ليس في جوهره ولا في طبيعته الإلهية، بل في الأعمال المتعلقة بالفداء، لأنه أُرسل منه. وعلى ذلك قيل: إنه لا يتكلم من نفسه، وإنه من نفسه لا يقدر أن يعمل شيئًا).

ومحاولة التفريق بين «الطبيعة» و«الأعمال» لا تُثبِت المساواة؛ لأن المساواة لا تكون إلا بالاثنين معًا..!

فالإختلاف في العمل ينفي المساواة في الجوهر لأن العمل ناشيء عن الجوهر ومتعلق به

وفي نفس الوقت فإن هذا التفريق يؤدي إلى إثبات جوهرين منفصلين متمايزين، تبعا لإختلاف العمل مما ينسف زعم التجسد والاتحاد الذي يمثل بؤرة عقيدتهم..!

ثم يقول: (لقد كان مجد المسيح مساويًا لمجد الآب، ولكنه تنازل عنه طوعًا لفترة محدودة ليكمل عمل الفداء بالموت عنا مصلوبًا. ولما أُكمل عمل الفداء عاد إلى مجده الأول[1]. وقد قال المسيح: أنا مجَّدتُك على الأرض. العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملتُه. والآن مجِّدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم [يو 17: 4، 5] فإن كنا نتكلم عن أن المسيح أقل من الآب، فذلك في فترة تنازله، ولأداء عمل الفداء. تنازل في اختصاصاته، وليس في شخصه.

---

(1) لاحظ تناقض هذه العبارة: (عاد لمجده الأول) مع اعتقادهم ببقاء التجسد حتى الآن..!

قال الرسول -يقصد بولس- إنه كان معادلاً لله، فجُعل في شِبه الناس، ووُجد في الهيئة كإنسان [في 2: 7، 8] وكان تحت الناموس [غل 4: 4]).

وهنا يثبت أن المساواة قد اختلت لفترة ما بسبب التنازل عن المجد

ولكنه سيطلب إعادة المجد بعد اتمام الفداء (والآن مجِّدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد) وهنا يثبت الفرق بما بين معطي المجد وآخذه

ولا يعنينا إن كانت المساواة قد اختلت لفترة ما، أو أنها مختلةٌ دومًا..! فالثابت أنها وجودًا وعدمًا لا تنفي حقيقة التثليث المناقضة لزعم التوحيد..

وكنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية تقول بصراحةٍ نادرة: أن الابن -الإله المتجسد- أقل رتبة من الإله من غير تجسد، يقول الأسقف أبولينراس: (الأقانيم الثلاثة الموجودة في الله متفاوتة القدر، فالروح عظيم، والابن أعظم منه، والأب هو الأعظم.. ذلك أن الأب ليس محدود القدرة والجوهر، وأما الابن فهو محدود القدرة لا الجوهر، والروح القدس محدود القوة والجوهر).

يقول الإمام ابن تيمية تعليقا على هذا الادعاء: (وهم في هذه الأمانة -أي في قانون إيمانهم- قد جعلوا الله والدًا وهو الأب، ومولودًا وهو الابن، وجعلوه مساويًا له في الجوهر، فقالوا: مولود غير مخلوق، مساوٍ الأب في الجوهر. فصرحوا بأنَّه مساوٍ له في الجوهر، والمساوِي ليس هو المساوَى..

ولا يساوي الأب في الجوهر.. إلا جوهر..

فوجب أن يكون الابن جوهرا ثانيًا، وروح القدس جوهرًا ثالثا.. كما سيأتي..

وهذا تصريح بإثبات ثلاثة جواهر وثلاثة آلهة، ويقولون مع ذلك: إنما نثبت جوهرا واحدًا، وإلهًا واحدًا. وهذا جمع بين النقيضين..!

فحقيقة قولهم: أنهم يجمعون بين جعل الآلهة واحدًا وإثبات ثلاثة آلهة، وبين

إثبات جوهر واحد وإثبات ثلاثة جواهر..

وقد نَزَّه الله نفسه عن ذلك بقوله: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 1-4].

فَنَزَّه نفسه أن يلد.. كما يقولون: هو الأب..

وأن يولد.. كما يقولون: هو الابن..

وأن يكون له كُفُوًا أحد.. كما يقولون: إن له من يساويه في الجوهر..

وإذا قلتم نحن نقول: (أَحَدِيّ الذات.. ثُلاثِيّ الصفات) قيل لكم: قد صرحتم بإثبات إله حق من إله حق، وبأنه مساوٍ للأب في الجوهر، وهذا تصريح بإثبات جوهر ثانٍ لا بصفة، فجمعتم بين القولين بين إثبات ثلاثة جواهر وبين دعوى إثبات جوهر واحد..!

ولا ينجيكم من هذا اعتذار من اعتذر منكم كيحيى بن عدي ونحوه، حيث قالوا: هذا بمنزلة قولك: زيد الطبيب، الحاسب، الكاتب، ثم تقول: زيد الطبيب، وزيد الحاسب، وزيد الكاتب.

فهو مع كل صفة له حكم خلاف حكمه مع الصفة الأخرى، وقد يفسرون الأقنوم بهذا، فيقولون: الأقنوم هو الذات مع الصفة، فالذات مع كل صفة أقنوم، فصارت الأقانيم ثلاثة..

وهذا المثال لا يطابق قولكم؛ لأن زيدًا هنا هو جوهر واحد له ثلاث صفات، الطب والحساب والكتابة، وليس هنا ثلاثة جواهر، كما أن حكم كل صفة يختلف عن الأخرى، ولا يقول عاقل: إن الصفة مساوية للموصوف في الجوهر، ولا أن الذات مع هذه الصفة تساوي الذات مع الصفة الأخرى في الجوهر؛ لأن الذات واحدة والمساوِي ليس هو المساوَى، ولأن الذات مع الصفة هي الأب، فإن كان هذا هو الذي اتحد بالمسيح.. فالمتحد به هو الأب، ولأنكم قلتم عن هذا الذي قلتم إنه: (إله حق من إله حق من جوهر أبيه الذي هو

مساوي الأب في الجوهر، وأنه نزل وتجسد من روح القدس ومن مريم العذراء، وتأنس وصلب وتألم)، فاقتضى ذلك أن يكون الإله الحق المساوي للأب في الجوهر صُلِبَ وتألَّم فيكون اللاهوت مصلوبًا متألمًا، وهذا تقر به طوائف منكم وطوائف تنكره، لكن مقتضى أمانتكم هو الأول..!

وأيضًا فإذا كان تجسد من روح القدس ومريم فإن كان روح القدس هو حياة الله -كما زعمتم- فيكون المسيح كلمة الله وحياته.. فيكون لاهوته أقنومين من الأقانيم الثلاثة.

وعندهم إنما هو أقنوم الكلمة فقط، وإن كان روح القدس ليس هو حياة الله بطل تفسيركم لروح القدس بأنه حياة الله، وقيل لكم: لا يجب أن يكون روح القدس صفة لله ولا أقنومًا).

إن حقيقة الألوهية تقتضي العلو.. والإله الواحد هو الأعلى، لذلك حسم التصور الإسلامي لخصائص الألوهية هذه البدعة بمقتضى حقيقة العلو، فيقول سبحانه: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ} [المؤمنون: 91].

فالمساواة بين إلهين شيء مستحيل.. ولا بد أن يكون الإله الحق هو الأعلى..

وحتى عندما حاولوا مساواة الأقانيم.. فقد افتقدوا المساواة المطلقة التي تنتفي بمجرد أن أقول: أب وابن وروح قدس؛ لأن الترتيب ترتيب زمني مرتبط بتاريخ ظهور الفكرة.

وعندهم لا يجوز أن تقول: باسم روح القدس والابن والآب، فأين المساواة إذن..!

المساواة في المشيئة:

ومن أخطر مشاكل الأقانيم مشكلة المشيئة بين الأقانيم..

ومن هنا تعددت فرق النصارى في هذه المشكلة؛ فمنهم من قال بوحدة المشيئة بين الأقانيم رغم تعددها.

ومنهم من قال بتعدد المشيئة تبعًا لتعدد الأقانيم.

والانحراف في مسألة المشيئة عند النصارى جاء في البداية من العلاقة بين مشيئة الله والعباد، التي تقوم على حقيقة أن المشيئة لله.

والمشيئة الواحدة إما أن تكون بمعنى تحقيق العبد لمراد الله وأن يكون هوى العبد تبعًا لما أمر الله.

وفي هذه الحالة يكون الجزاء: أن يحقق الله بإرادته مراد العبد، ولذلك يقولون: أن المسيح تخلى عن مشيئته، وأخضع مشيئته لمشيئة الرب، ودليل صحة هذا التفسير هو قولهم:

وصار هذا أيضًا طريق كل مَن يتبع المسيح: أن يطرح عنه مشيئته الخاصة ويتخلَّى عنها ليُخضع نفسه لمشيئة المسيح التي هي نفس مشيئة الله الآب. وهكذا يصير لأولاد الله مشيئة أبيهم السماوي: (لتكن مشيئتك).

وإثبات المشيئة المطلقة لله سبحانه وتعالى يعتبر أساسًا هامًّا في فهم قضية عيسى ابن مريم، وذلك في إطار التعريف الصحيح بالله.

من حيث طلاقة المشيئة.. ومن حيث وحدة المشيئة..

فكان الخلل في إيمان النصارى بطلاقة المشيئة هو السبب المباشر في الانحراف؛ لأنهم لم يتمكنوا من استيعاب قضية عيسى ابن مريم، التي يعبِّر عنها القرآن بقوله سبحانه: { كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ

لَهُ كُن فَيَكُونُ} [آل عمران: 47][1].

(1) يراجع مبحث المشيئة، فصل طبيعة التحريف، بالباب الثالث من كتاب المسيح دراسة سلفية للكاتب.

المدخل إلى القول بالتجسد

يرغب الإنسان بطبيعته في رؤية الله.. هذه الحقيقة ثابتة في التصور الإسلامي وهي الحقيقة نفسها التي انحرف إبليس بالنصارى من خلالها في تصورهم عن الله؛ ليختلط الشعور الفطري في الإنسان عن الله.. بالتحريف الشيطاني في دين الله.

لتكون النصرانية أخطر نماذج هذا الخلط الذي غرز فيه الشيطان إحساسًا شاذًّا بالارتياح لفكرة أن ينزل الله من السماء ليكون بيننا نحن البشر.. بل ويُضرَب ويُصلَب..!

وقد تسللت هذه الفكرة إلى النصرانية من العقائد الوثنية، وتسللت معها فكرة أخرى -لا تقل خطورة عنها- وهي التحيز النفسي عند الإنسان لذاته، مما جعل للأوثان صورة إنسانية ثابتة.. نادرًا ما تخرج عنها صورة هذه الأوثان..!

وهذه الفكرة هي إسقاط صورة الذات الإنسانية على المعبود؛ ليصبح الإنسان هو العابد وهو المعبود كذلك..!

وارتكازا على الرغبة الفطرية عند الإنسان في رؤية الله.. وبالتحيز النفسي عند الإنسان لذاته.. أحدث الشيطان فكرة التجسُّد الإلهي في صورة إنسان، هذه الفكرة التي تسللت إلى المسيحية ثم امتدت وتعمقت؛ لتكون بدعة التجسد.

وارتكاز الشيطان على الطبيعة البشرية في الانحراف بالإنسان كان أول الأساليب التي مارسها إبليس لإضلال الإنسان، فارتكز مع آدم على حقيقة الرغبة في الخلود، عندما وسوس له ليأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها: **(قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى)** [طه: 120].

ولكن الخلط الشيطاني الذي بلغ بالإنسان هذا الحد، كان قد سبقه فعلٌ آخر، هو

تغييب التصور الشرعي الصحيح عن الله، المحقق للشعور الإنساني الصحيح بالله عز وجل.

لذا تعددت المداخل الشيطانية لتبرير بدعة التجسد عند النصارى، لكن أخطرها كان الادِّعاء بأن ظهور الله في صورة إنسان هو الذي سيحقق المعرفة الإنسانية الكاملة بالله، وكان هذا الادِّعاء أهم أسباب فتنة النصارى بادِّعاء التجسد [1].

وقد نشأ هذا الادِّعاء من ضياع التصور الصحيح للعلاقة بين الله والإنسان؛ لذا كان من أهم أسباب تصحيح الشعور الإنساني بالله.. هو استرداد هذا التصور الغائب بكل عناصره.

وأول هذه العناصر هو أن التعريف بالله في التصور الإسلامي قائم باعتبار الطبيعة الإنسانية «الصحيحة» التي تتلقى نصوص هذا التعريف تلقيًا «صحيحًا».. ابتداءً من إقرار هذه الحقائق النفسية.

فيعالج الشوق الإنساني لرؤية الله بتقرير هذا الشوق..

كما في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، وأسألك

(1) يقول صاحب اللاهوت النظامي: (من فوائد التجسد للبشر أن يكون لنا في ابن الله المتجسد مثال فريد لحياة البشرية الكاملة، وظهور اللاهوت بكمال صفاته على هيئة منظورة محسوسة اقتربت منا اقترابًا عجيبًا! جعلت مخاطبتنا لله وجهًا لوجه في الصلاة والاتحاد الروحي أمرًا ممكنًا).

لذة النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك، من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»[1].

فبدأ الحديث بالتعريف بالله وصفاته «العلم والقدرة»..

ثم طلب الوصول إلى الطبيعة الإنسانية الصحيحة: خشية الله في الغيب والشهادة، وقول الحق في الغضب والرضا، والاقتصاد في الفقر والغنى..

النعيم الذي لا ينفد وهو العافية في البدن، وقرة العين التي لا تنقطع وهي اطمئنان القلب وقراره..

وبوصول الإنسان إلى هذه الطبيعة الصحيحة.. يبلغ مقام المعرفة الصحيحة.. فيسأل الله لذة النظر إلى وجهه الكريم.. سبحانه وتعالى.

والتعرف على الله من خلال قضية الأسماء والصفات -قدر الطاقة- هو الذي يضمن أقصى درجات المعرفة الصحيحة بالله.

وفقدان الطبيعة الإنسانية الصحيحة هو الذي يعطل المعرفة الصحيحة بالله عز وجل وأسمائه وصفاته، كما جاء في قوله تعالى: **(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)** [الأعراف: 179-181][2].

---

(1) أخرجه أحمد (464/4)، والنسائي (54/3، 55)، والحاكم في المستدرك (705/1) جميعهم عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما.

(2) فالأمة التي خلقها الله تهدي للحق هي المقابل لمن ذرأهم الله لجهنم، وفي تحديد هذه الأمة، يقول ابن كثير: (قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتي قومًا على الحق حتى ينزل

ولأنه لا يمكن للإنسان أن يرى الله في الدنيا.. **(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي)** [الأعراف: 143]..

فقد جاءت العبادة الصحيحة الخاشعة لتغذي هذا الشعور وهذه اللهفة وهذا الشوق عند الإنسان لرؤية الله..

فيبلغ العبد أقصى درجات إحساسه بالله من خلال مقام الإحسان، حتى يبلغ درجة «كأنه يراه» كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أن تعبد الله كأنك تراه.. فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

ولذلك يقول الله عز وجل: **(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)** [يونس: 26].

روى الإمام مُسْلِمٌ عن صهيب، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار. قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل**»[2]، ثم تلا هذه الآية: **(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)**.

عيسى ابن مريم متى ما نزل»، وفي الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة»، وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»، وفي رواية: «وهم بالشام»).

والارتباط بين الأمة التي تهدي للحق وعيسى ابن مريم يدل على دلالة قضيته في تحديد التصور الصحيح عن الله سبحانه.

(1) أخرجه البخاري (4499)، ومسلم (9، 10) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (8) عن عمر رضي الله عنه.

(2) أخرجه مسلم (181) عن صهيب رضي الله عنه.

فرؤية الله هي جزاء الإحسان..

وبذلك يقوم التصور الإسلامي في تعامله مع البشر من خلال الرغبة الفطرية في رؤية الله عز وجل بصورة صحيحة، فيحدد لهم سبيل الوصول إلى رؤية الله، والرغبة النفسية في الخلود، ليكون السبيل هو التزام الصراط المستقيم المؤدي إلى الجنة، حيث الخلود ورؤية الله سبحانه وتعالى..

ومما يتمم معالجة الإحساس الفطري بالله عند الإنسان شعورُه بقرب الله منه.. وقد جاء إثبات القرب في القرآن بطريقين: علم الله بالعبد.. وعونه له..

ففي العلم قال تعالى: **(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)** [ق: 16].

ويقول عز وجل: **(مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا)** [المجادلة: 7].

وفي العون يقول سبحانه: **(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)** [البقرة: 186].

وكذلك الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، يقول الله تعالى:

«من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها» وفي رواية: «**فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش،**

وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[1].

حيث تبين من الحديث أن قرب العبد إلى الله -بالفرائض والنوافل- هو الذي يحقق حب الله للعبد؛ ليتحقق بحب الله للعبد أن يسمع بالله ويبصر بالله..

ومعنى الحديث: أنه إذا اجتمعت إرادة الإنسان بسمعه وبصره ويده ورجله على تحقيق مراد الله يكون جزاؤه أن يكون مراد الإنسان بسمعه وبصره ويده ورجله تحقيقًا لإرادة الله.

وفي هذا الحديث يقول الإمام ابن تيمية: (وهذا الحديث قد يحتج به القائلون بالحلول العام، أو الاتحاد العام، أو وحدة الوجود، وقد يحتج به من يقول بالخاص من ذلك كأشباه النصارى، والحديث حجة على الفريقين فإنه قال: **«من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب»**.

فأثبت ثلاثةً: «وليًّا له»، و«عدوًّا يعادي وليَّه»، وميز بين «نفسه» وبين «وليه» و«عدو وليه» فقال: **«من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب»**.

فدل ذلك على أن وليَّه: هو الذي والاه فصار يحب ما يحب، ويبغض ما يبغض، ويوالي من يوالي، ويعادي من يعادي، فيكون الرب مؤذنًا بالحرب لمن عاداه بأنه معادٍ لله.

ثم قال تعالى: **«وما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه»** ففرقٌ بين العبد المتقرِّب والرب المتقرَّب إليه.

ثم قال: **«ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»** فبيَّن أنه يحبه بعد تقربه بالنوافل والفرائض، ثم قال: **«فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»**،

---

(1) أخرجه البخاري (6137) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وعند أهل الحلول والاتحاد العام أو الوحدة هو صدره وبطنه وظهره ورأسه وشَعره، وهو كل شيء، أو في كل شيء، قبل التقرب وبعده، وعند الخاص وأهل الحلول صار هو وهو كالنار والحديد، والماء واللبن[1]، لا يختص بذلك آلة الإدراك والفعل!!

ثم قال تعالى: «**فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي**»، وعلى قول هؤلاء: الرب هو الذي يسمع ويبصر ويبطش ويمشي، والرسول إنما قال: «فبي»، ثم قال: «**ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**» فجعل العبدَ سائلاً مستعيذًا، والرب مسئولاً مُستعاذًا به، وهذا يناقض الاتحاد.

وقوله: «**فبي يسمع**» مثل قوله: «**أنا مع عبدي ما ذكرني.. وتحركت بي شفتاه**» يريد به «المثال العلمي»[2]، فيكون الله في قلبه؛ أي: معرفته ومحبته وهداه وموالاته، وهو «المثل العلمي»، فبذاك الذي في قلبه يسمع ويبصر، ويبطش ويمشي.

والمخلوقُ إذا أحب المخلوقَ أعظمه أو أطاعه، يعبر عنه بمثل هذا فيقول: أنت في قلبي وفي فؤادي، وما زلت بين عيني، ومنه قول القائل:

مثالك في عيني وذكرك في ... ومثواك في قلبي فأين تغيب

وقول الآخر:

ومن عجبي أني أحن إليهم ... وأسأل عنهم من لقيت وهم

---

(1) ولعلنا نلاحظ أن المثل الذي استخدمه ابن تيمية للتعبير عن تصور أهل الحلول والاتحاد بقوله: (كالنار والحديد، والماء واللبن) هو نفس المثل الذي يستخدمه النصارى في بدعة التجسد.

(2) لعلنا نلاحظ تكرار كلمة «المثال العلمي» في كلام ابن تيمية لذا كان من المهم فهمها، ومعناه أقصى درجة إدراك وإحساس بالحقيقة الخارجية في قلب الإنسان وعقله.

وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين

والعقلاء إنما تتوجه قلوبهم إلى المقصود المراد دون الوسائل، ويعبرون بعبارات تدل على ذلك؛ لظهور مرادهم بها، كما يقال: عكرمة هو ابن عباس، وأبو يوسف هو أبو حنيفة.

ومن هذا الباب ما يُذكر عن المسيح عليه السلام أنه قال: (أنا وأبي واحدٌ.. من رآني فقد رأى أبي).

وقوله تعالى فيما حكاه عنه رسولُه: **«عبدي، مرضت فلم تعدني.. عبدي، جعت فلم تطعمني»**[1]، ويشبهه قوله: **(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)** [الفتح: 10].

فينبغي أن يُعرف هذا النوع من الكلام، فإنه تنحل به إشكالات كثيرة، فإن هذا موجود في كلام الله ورسله، وكلام المخلوقين في عامة الطوائف، مع ظهور المعنى، ومعرفة المتكلم والمخاطب أنه ليس المراد أن ذات أحدهما اتحدت بذات الآخر.

فلفظ الحلول يُراد به حلول ذات الشيء تارة وحلول معرفته ومحبته و«مثاله العلمي» تارة.

وقد يعبَّر عن ذلك بحلول «المثال العلمي»، كما قال تعالى: **(وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ)** [الأنعام: 3]، وقال: **(وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)** [الروم: 27] فهو سبحانه له المثل الأعلى في قلوب أهل السموات وأهل الأرض.

ومن هذا الباب ما يرويه النبي عن ربه قال: **«يقول الله.. أنا مع عبدي ما**

(1) أخرجه مسلم (2569) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ذكرني وتحركت بي شفتاه»[1]، فأخبر أن شفتيه تتحرك به؛ أي: باسمه.

وكذلك قوله في الحديث الصحيح: **«عبدي، مرضت فلم تعدني، فيقول العبد: ربِّ، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟! فيقول: أما علمت أن عبدي فلانًا مرِض؟! فلو عدته لوجدتني عنده»**، فقال: **«لوجدتني عنده»** ولم يقل: **«لوجدتني إياه»**، وهو عنده.. أي في قلبه، والذي في قلبه «المثال العلمي».

وهذا هو المعنى المفهوم من كلمة «المثال العلمي»، وهو ما قد يفهم من بعض العبارات الواردة على لسان الناس مثل:

قد تخللت مسلك الروح مني   وبذا سُمِّيَ الخليل خليلا

والمتخلل مسلك الروح منه هو محبته له وشعوره به ونحو ذلك، لا نفس ذاته.

وكذلك قول الآخر:

ساكن في القلب يعمره   لست أنساه فأذكره

وكذلك قول الآخر: والساكن في القلب هو «مثاله العلمي»، ومحبته ومعرفته، فتسكن في القلب معرفته ومحبته، لا عين ذاته. ومما يزيد ذلك أيضًاحا: ما يراه النائم من بعض الأشخاص في منامه، فيخاطبه، ويأمره وينهاه، ويخبره بأمور كثيرة، وهو يقول: رأيت فلانًا في منامي، فقال لي كذا وقلت له كذا، وفعل كذا وفعلت كذا، ويذكر أنواعًا من الأقوال والأفعال، وقد يكون فيها علوم وحِكم وآداب ينتفع بها غاية المنفعة، وقد يكون ذلك الشخص الذي رأى في المنام حيًّا، وهو لا يشعر بأن ذاك رآه في منامه، فضلاً عن أن يكون شاعرًا بأنه قال أو فعل، وقد يقص الرائي عليه رؤياه، ويقول له الرائي: يا سيدي رأيتك في المنام فقلت لي كذا وأمرتني بكذا ونهيتني عن كذا،

---

(1) أخرجه البخاري تعليقا (2735/6) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والمرئي لا يعرف ذلك ولا يشعر به؛ لأن المرئي الذي حل في قلب الرائي هو «المثال العلمي» المطابق للعيني).

وبهذا التصور السلفي تُعالج هذه القضايا؛ ليكون الأساس في هذا التصور هو الفرقان بين الخالق والمخلوق.

الابن والكلمة

بدأ الخلل في اعتقاد النصارى عندما قالوا: أن الله ذات، وأن الذات لها صفة الكلمة، وأن الكلمة قائمة بالذات، وأن الكلمة تفيد حضور الله الشخصي، وتعبر عن شخصه ومهابته.

ومثال ذلك عندهم: التوراة.. فهي كلمة الله. لها وجود شخصيٌّ ذاتيٌّ؛ ولذلك سميت «بنت الله» يدللها الله ويجلسها على ركبتيه، ونسبوا إليها القدرة والعمل والفاعلية الذاتية. ويستدلون على هذا الكلام بما هو مكتوب عندهم (هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي، لا ترجع إلي فارغة، بل تعمل ما سرت به، وتنجح فيما أرسلتها له). ويقصدون بذلك أنه بمجرد أن تصدر الكلمة عن الله يصبح لها وجودًا ذاتيًّا فعَّالاً وقدرة على النمو والغفران والتقديس، وعلى التغيير والتجديد والولادة والشفاء من تلقاء ذاتها، بمجرد قبولها وتصديقها.

ثم قالوا: المسيح كلمة الله.. والكلام صفة لازمة للذات.. إذن المسيح صفة لازمة قائمة بالذات.. إذن المسيح قائم بذات الله أو هو الله.

وتصحيح هذا الخلل..

هو أن الله ذات.. له أسماء وصفات وأفعال.

والصفات لازمة للأفعال.. ناشئة عن الذات.. بمقتضى الصفات.

فهي متعلقة بالذات.. مستلزمة للأفعال.

والكلام من صفات الله له معنيان: معنى الصفة اللازمة للذات، ومعنى الفعل الناشئ عن الصفة اللازمة.

فالمسيح كلمة الله.. بمعنى الفعل الناشئ عن الصفة اللازمة.. وليس بمعنى الصفة اللازمة ذاتها.. والفرق بين المعنيين هو أخطر زوايا الانحراف عند النصارى.

ولذلك قال قتادة: ليس الكلمة: صار عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى، وكذلك قال الإمام أحمد بن حنبل في مصنفه، وذكره عنه الخلال والقاضي أبو يعلى: الكلمة التي ألقاها الله إلى مريم حين قال له: كن.. فكان عيسى بـ«كن» وليس عيسى هو «كن»، ولكن بـ «كن» كان، فـ «كن» من الله قوله، وليست مخلوقًا، فكذبت النصارى على الله في أمر عيسى.

وهذا مجمل القول السلفي في مسألة «الكلمة».

فتسمية عيسى بالكلمة جاء من باب تسمية الشيء بسببه.

والدليل القرآني على هذا المعنى هو قول الله عز وجل: **(إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)** [آل عمران: 45].

فإن قوله: **(بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ)** فيه الضمير عائد في «اسمه» إلى عيسى، وهو اسم مذكر مع أن الكلمة اسم مؤنث، فلو كانت الكلمة ذاتها هي عيسى ذاته لكانت الآية اسمها المسيح.

ولكنهم قالوا: إذا كانت كل أفعال الله ناشئة عن الذات بمقتضى الصفات فما وجه اختصاص المسيح باسم «الكلمة»؟

والرد: يجوز تسميه الفعل بالصفة التي نشأ عنها، والدليل... قول رسول الله: «**قالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا الفقراء.. وقالت النار: ما لي لا يدخلني إلا المتكبرين.. فقال الله للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء.. وقال للنار: أنت عذابي أعذب بك من أشاء**»[1].

فالجنة فعل من أفعال الله، نشأت عن الذات بمقتضى صفة الرحمة.

---

(1) أخرجه البخاري (4569، 7011)، ومسلم (2846) كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فجاز تسمية الجنة بالرحمة باعتبارها فعل من أفعال الله، ناشئ بمقتضى صفة الرحمة.

إذن عيسى كلمة الله بالمعنى الثاني.. وهو تسمية الفعل بالصفة الناشئة عنها...

فمثلما كانت الجنة هي رحمة الله... كان عيسى كلمة الله.

وفي هذا الإطار يمكن أن يقول الرجل لغيره: غفر الله لك علمه فيك، وهو يقصد معلومه؛ أي: علمه فيه، فجاءت الصفة بمعني الفعل.

والقاعدة التي تضمن الصواب.. هو أنه ليس هناك في الخلق ما يخرج عن حدود الفعل الإلهي.

وجميع الخلائق كانت بكلمة كن.

ولكن اختصاص عيسى بالكلمة جاء من كونه كان بالكلمة دون سبب.. أي: وُلد من مريم بغير أب.

وهذا الاختصاص تابع لقاعدة عامة في القدر.. وهى أن كل أفعال الله قدر.

ولكن الأفعال التي تحدث بغير الأسباب الطبيعية أو بغير إرادة من الإنسان الفاعل يطلق على هذا الفعل «قدر» علمًا بأن كل أفعال الله قدر.

فأنت عندما تشرب ماءً في إناء يكون ذلك قدر.. ولكن عندما يقع هذا الإناء من يدك يكون ذلك قدر أيضًا.

ولكنك لا تطلق لفظ القدر إلا في حالة كسر الإناء فقط؛ لأنه حدث بلا سبب، ولا إرادة.

ومع أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، فخلقه بـ «كن» ونفخ فيه من «روحه» إلا أن آدم لم يطلق عليه: «روح الله وكلمته» بينما أُطلق على عيسى

واختص به..

فما معنى هذا الاختصاص..؟!

والإجابة على هذا السؤال: هو أن خلق آدم كان البداية، ويتبع البداية حواء، باعتبار أن الامتداد بآدم وحواء، أو بالذكر والأنثى، الذي يكون بهما التناسل والامتداد البشري، حيث استمر هذا الامتداد من خلال الأسباب الطبيعية للتناسل، فلم يكن هناك وجه للاختصاص في البداية والامتداد، حتى كان خلق عيسى ابن مريم الذي يمثل استثناءً من طبيعة الامتداد، فجاء الاختصاص من هذا الاستثناء.

وادِّعاء النصارى بأن المسيح كلمة الله الذاتية ينشأ عنه عدة تساؤلات...

هل يعنون بالكلمة.. الذات المتكلمة؟.. أم المعنى القائم بالذات الأزلية؟.. أم كلام الله كله؟.. أم بعض كلام الله؟

فإن قالوا: الذات المتكلمة، فلا يكون الكلام مولودًا، ولا تكون الكلمة قد أرسلت..!

وإن قالوا: المعنى القديم الأزلي؛ لزمهم أن يكون المسيح كلام الله كله.

وإن قالوا: كلام الله كله؛ يكون المسيح هو التوراة والإنجيل وسائر كلام الله.

وإن قالوا: بعض كلام الله؛ فيكون الكلام الآخر مثل الكلام الذي هو المسيح.

فيكون هناك آلهة أخرى وبما أن كلام الله لا نهاية له.. فيكون هناك عددٌ لا نهائي من الآلهة..!

ولا بد لهم من إثبات أقنوم الكلمة الذي يقولون تارة هي العلم وتارة هي الحكمة، ويسمونها تارة النطق كما سموها في كتابهم هذا؛ لأن الذي اتَّحد بالمسيح عندهم هو أقنوم الكلمة، فصاروا تارة يضمون إليها الحياة، وتارة يضمون إليها القدرة.

والأب تارة يقولون: هو الوجود، وتارة يقولون: القائم بنفسه، وتارة يقولون: الذات، وتسمى القائم بنفسه بالسريانية الكيان.

وكل هذا من الحيرة والضلال؛ لأنهم لا يجدون ثلاثة معانٍ هي المستحقة لأن تكون جوهرية دون غيرها من الصفات، سواء فسرت الجوهرية بأنها جواهر أو بأنها ذاتية مقومة أو بغير ذلك.

ومنها قولهم: تُجرى مجرى أسماء، فإن أرادوا بذلك أسماء أعلام أو جامدة، وسائرها صفات- فاسم الحي والعالم اسمٌ مشتق يدل على معنى العلم والحياة كما يدل القدير على القدرة.

وإن أرادوا أنه يسمى بها فـ«لله» تعالى أسماء كثيرة، فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى.

ومن أسمائه «القدير» والقدرة تستلزم من قدرته على المخلوقًات ما لا يدل عليه العلم، وخلقه للمخلوقًات يدل على قدرته أبلغ من دلالته على علمه، واختصاصه بالقدرة أظهر من اختصاصه بالعلم، حتى إن طائفة من النظار كأبي الحسن الأشعري وغيره يقول: أخص وصفه القدرة على الاختراع، فلا يوصف بذلك غيره

والمقصود هنا: أن كلام الأنبياء لا يجوز أن يُحمل إلا على لغتهم، التي من عادتهم أن يخاطبوا بها الناس، لا يجوز أن يحدث لغة غير لغتهم ويحمل كلامهم عليها.

بل إذا كان لبعض الناس عادة ولغة يخاطب بها أصحابه، وقدر أن ذلك يجوز له فليس له أن يحمل ذلك لغة النبي ويحمل كلام النبي على ذلك.

ومن هذا إخبار الأنبياء: بأن الله يقول ويتكلم وينادي ويناجي وأنه قال كذا وتكلم بكذا ونادى موسى ونحو ذلك.

والمعروف في لغتهم ولغة سائر الأمم: أن المتكلم من قام به الكلام، وإن

كان متكلمًا بقدرته ومشيئته، لا يعرف في لغتهم أن المتكلم من أحدث كلامًا منفصلاً عنه، ولا أن المتكلم من قام به الكلام بدون قدرته ومشيئته (حتى لا يكون تولد الكلمة بإرادة الأب دون الابن)

فليس لأحد إذا جعل اسم المتكلم لمن يحدث كلامًا بائنًا عنه أو من قام به بدون قدرته ومشيئته- أن يحمل كلام الأنبياء على هذا.

بل المتكلم عند الإطلاق من تكلم بقدرته ومشيئته مع قيام الكلام به.

قال سعيد بن البطريق: (ومثلما أن كلمة الإنسان المولودة من عقله تكتب في قرطاس، فهي في القرطاس كلها حقًّا، من غير أن تفارق العقل الذي منه ولدت ولا يفارقها العقل الذي ولدها؛ لأن العقل بالكلمة يعرف لأنها فيه، والكلمة كلها في العقل الذي ولدها، وكلها في نفسها، وكلها في القرطاس الذي التحمت به، فكذلك كلمة الله كلها في الأب الذي ولدت منه، وكلها في نفسها وفي الروح، وكلها في الناسوت التي حلت فيها والتحمت بها).

فيقال: هذا التمثيل حجة عليكم وعلى فساد قولكم.. لا حجة لكم، وذلك يظهر بوجوه:

أحدها: أن يقال: إن كان حلول كلمة الله التي هي المسيح في الناسوت مثل كتابة الكلام في القرطاس- فحينئذ يكون المسيح من جنس سائر كلام الله، كالتوراة وزبور داود والإنجيل والقرآن وغير ذلك، فإن هذا كله كلام الله وهو مكتوب في القراطيس باتفاق أهل الملل؛ بل الخلق كلهم متفقون على أن كلام كل متكلم يكتب في القراطيس، وقد قال تعالى في القرآن: **(بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ)** [البروج: 21، 22].

وقال تعالى: **(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)** [الواقعة: 77-79].

وقال سبحانه: **(رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ)** [البينة: 2،

3].

وقال: **(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ)** [عبس: 11-16].

وقال تعالى: **(وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ)** [الطور: 1-3].

وإذا كانت الكلمة التي هي المسيح عندكم هكذا.. فمعلوم أن كلام الله المكتوب في القراطيس ليس هو إلهًا خالقًا، وهو كلام كثير لا ينحصر في كلمة ولا كلمتين..!

ولو قال قائل: يا كلام الله اغفر لي وارحمني، أو يا توراة أو يا إنجيل أو يا قرآن اغفر لي وارحمني.. كان قد تكلم بباطل عند جميع أهل الملل والعقلاء، وأنتم تقولون المسيح إله خالق وهو يُدعى ويُعبد، فكيف تشبهونه بكلام الله المكتوب في القراطيس؟!

الثاني: أن الكلام المكتوب صفة للمتكلم، يقوم به ويكتب في القراطيس عند سلف أهل الملل وجماهيرهم، وعند بعضهم هو عرض مخلوق يخلقه في غيره، فالجميع متفقون على أن الكلام صفة تقوم بغيرها، ليس جوهرًا قائمًا بنفسه، والمسيح عندكم: لاهوته جوهرٌ قائم بنفسه، وهو إله حق من إله حق، وهو عندكم: إله تام وإنسان تام، فكيف تجعلون الإله الذي هو عينٌ قائمة بنفسها كالصفة التي لا تقوم إلا بغيرها..؟!

الثالث: قولكم: إن كلمة الإنسان مولودة من عقله لو كان صحيحًا فالتولد لا يكون إلا حادثًا..

وأنتم تقولون: إن كلمة الله القديمة الأزلية متولدة منه قبل الدهور، وتقولون مع هذا: هي إله..

وهذا كما أن بطلانه معلوم بصريح العقل فهي بدعة وضلالة في الشرع؛ فإنه لم يسمِّ أحد من الأنبياء شيئًا من صفات الله ابنًا له، ولا قال: إن صفته متولدة منه، ولفظ الابن لا يوجد عندكم عن الأنبياء إلا اسمًا لناسوت مخلوق، لا لصفة الله القديمة، فقد بدلتم كلام الأنبياء بهذا الافتراء.

الرابع: قولكم مولودة من عقله؛ إن أردتم بعقله العين القائمة بنفسها التي يسميها قلبًا وروحًا ونفسًا أو نفسًا ناطقة- فتلك إنما تقوم بها المعاني، وأما الألفاظ فإنما تقوم بفمه ولسانه.

وإن أردتم بعقله مصدر عقل يعقل عقلاً فالمصدر عرضٌ قائمٌ بالعقل، وهو عرَض من جنس العلم والكلمة والعمل الصالح.

وإن أردتم بالعقل الغريزة التي في الإنسان فهو أيضًا عرض.

الخامس: أن تسميتكم تكلم الإنسان بالمعنى أو اللفظ تولدًا أمرٌ اخترعتموه، لا يُعرف عن نبيٍّ من الأنبياء ولا أمة من الأمم ولا في لغة من اللغات.

وإنما ابتدعتم هذا لتقولوا: إذا كان كلام الإنسان متولدًا منه فكلام الله متولد منه.

ولم ينطق أحدٌ من الأنبياء بأن كلام الله تولد منه، ولا أنه ابنه، ولا أن علمه تولد منه، ولا أنه ابنه.

السادس: قولكم إن كلمة الإنسان المولودة من عقله تكتب في القرطاس، فهي في القرطاس كلها حقًّا من غير أن تفارق العقل الذي منه ولدت... إلى قولكم: الكلمة كلها في العقل الذي ولدها، وكلها في القرطاس الذي التحمت به- مكابرةٌ ظاهرة معلومة الفساد بصريح العقل، فإن وجود الكلام في القلب واللسان ليس هو عين وجوده مكتوبًا في القرطاس، بل القائم بقلب المتكلم معاني طلب وخبر وعلم وإرادة، والقائم بنفسه حروف مؤلَّفة هي أصوات

مقطعة أو هي حدود أصوات مقطعة وليس في قلب الإنسان ولا فمه مداد كالمداد الذي في القرطاس.

والكلام مكتوب في القرطاس باتفاق العقلاء، مع علمهم بأنه ليس في القرطاس علم وطلب وخبر قائم به كما تقوم بقلوب المتكلم، ولا قام به أصوات مقطعة مؤلفة ولا حروف كالأصوات القائمة بفم المتكلم بل لفظ الحرف يقال على الحرف المكتوب: إما المداد المصوَّر وإما صورة المداد وشكله، ويقال على الحرف المنطوق إما الصوت المقطَّع وإما حد الصوت ومقطعه وصورته.

وكل عاقلٍ يميز بحسه وعقله بين الصوت المسموع من المتكلِّم وبين المداد المرئي بالبصر، ولا يقول عاقل: إن هذا هو هذا، ولا يقال: إن هذا وهذا هو نفس المعنى القائم بقلب المتكلم، فكيف تقولون: إن الكلمة في القرطاس كلها، وكلها في العقل الذي ولدها وكلها في نفسها.

السابع: أن حرف «في» التي يسميها النحاة ظرفًا يُستعمل في كل موضع بالمعنى المناسب لذلك الموضع، فإذا قيل: إن الطعم واللون والريح حال في الفاكهة أو العلم والقدرة، والكلام حال في المتكلم فهذا معنى معقول.

وإذا قيل: إن هذا حال في داره أو إن الماء حال في الظرف فهذا معنى آخر.

فإن ذاك حلول صفة في موصوفها وهذا حلول عين قائمة تسمى جسمًا وجوهرًا في محلها، ومنه يقال لمكان القوم: المحلة، ويقال فلان حلَّ بالمكان الفلاني.

وإذا قيل: الشمس والقمر في الماء أو في المرآة، أو وجه فلان في المرآة، أو كلام فلان في هذا القرطاس- فهذا له معنى يفهمه الناس يعلمون أنه قد

ظهرت الشمس والقمر والوجه في المرآة، ورُئيت فيها، وأنه لم يحل بها ذات ذلك، وإنما حلَّ فيها مثالٌ شعاعي عند من يقول ذلك.

وكذلك الكلام إذا كُتب في القرطاس فالناس يعلمون أنه مكتوب فيه ومقروء فيه ومنظور فيه، ويقولون: نظرت في كلام فلان وقرأته وتدبرته وفهمته ورأيته ونحو ذلك، كما يقولون: رأيت وجهه في المرآة وتأملته ونحو ذلك.

وهم في ذلك كله صادقون، يعلمون ما يقولون، ويعلمون أن نفس جرم الشمس والقمر والوجه لم يحل في المرآة، وأن نفس ما قام به من المعاني والأصوات لم تقم بالقرطاس، بل كانت المرآة واسطة في رؤية الوجه، فهو المقصود بالرؤية، وكان القرطاس واسطة في معرفة الكلام، فهو المقصود بالرؤية، ويعلمون أن حاسة البصر باشرت ما في المرآة من الشعاع المنعكس، ولكن المقصود بالرؤية هو الشمس، وحاسة البصر باشرت ما في القرطاس من المداد المكتوب، ولكن المقصود بالرؤية هو الكلام المكتوب.

ويعلمون أن نفس المثال الذي في المرآة ليس هو الوجه، وأن نفس المداد المكتوب به ليس هو الكلام المكتوب، بل يفرقون بينهما، كما قال تعالى: **(قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا)**.

ففرَّق سبحانه بين الكلمات وبين المداد الذي يكتب به الكلمات.

فكيف يقال: إن هذا هو هذا، وأن الكلمة في القرطاس كلها وهي في المتكلم كلها!!

الثامن: أن الكلام له معنى في المتكلم، يعبر عنه بلفظه، واللفظ يكتب في القرطاس، فالمكتوب في القرطاس هو اللفظ المطابق للمعنى، لا يكتب المعنى بدون كتابة اللفظ الذي كتب بالخط، ليعرف ما كتب، فدعوى هؤلاء: أن نفس

المعنى الذي في القلب كله هو في القرطاس كله- جعلٌ لنفس المعنى هو الخط؛ وهذا باطل.

التاسع: أنه لا ريب أن كلام المتكلم يقال إنه قائم به، ويقال مع ذلك: إنه مكتوب في القرطاس، ويقال: هذا هو كلام فلان بعينه، وهذا هو ذاك، ونحو ذلك من العبارات التي تبين أن هذا المكتوب في القرطاس هو هذا الكلام الذي تكلم به المتكلم بعينه، لم يزد فيه ولم ينقص، لم يكتب كلام غيره.

ولا يريدون بذلك: أن نفس الخط نفس الصوت أو نفس المعنى؛ فإن هذا لا يقوله عاقل.

(ولذلك كان سلف الأمة وأئمتها إذا قيل لهم: علم الله وكلام الله هل هو غير الله أم لا.. لم يطلقوا النفي ولا الإثبات، فإنه إذا قال: غيره.. أوهَم أنه مباين له، وإذا قال: ليس غيره.. أوهم أنه هو..

بل يستفصل السائل، فإن أراد بقوله غيره أنه مباين له منفصل عنه، فصفات الموصوف لا تكون مباينة له منفصلة عنه وإن كان مخلوقًا، فكيف بصفات الخالق..؟!

وإن أراد بالغير: أنها ليست هي هو، فليست الصفة هي الموصوف فهي غيره بهذا الاعتبار..

واسم الرب تعالى إذا أُطلِقَ.. يتناول الذات المقدسة بما يستحقه من صفات الكمال، فيمتنع وجود الذات عَرِيَّةً عن صفات الكمال.

فاسم الله يتناول الذات الموصوفة بصفات الكمال، وهذه الصفات ليست زائدة على هذا المسمى.. بل هي داخلة في المسمَّى، ولكنها زائدة على الذات المجردة التي يثبتها نفاة الصفات.

فأولئك لما زعموا أنه ذات مجردة قال هؤلاء: بل الصفات زائدة على ما أثبتموه من الذات، وأما في نفس الأمر فليس هناك ذات مجردة تكون الصفات زائدة عليها، بل الرب تعالى هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال، وصفاته داخلة في مسمى أسمائه سبحانه وتعالى).

وخلاصة القول: أن المسيح ليس نفس كلمة الله

وأن كلمة الله ليست هي الإله الخالق للسموات والأرض،

ولكن الله هو الخالق بكلمة كن

ولا يقول أحد: يا علم الله اغفر لي ويا قدرة الله توبي عليَّ ويا كلام الله ارحمني، ولا يقول: يا توراة الله أو يا إنجيله أو يا قرآنه اغفر لي وارحمني، وإنما يدعو الله سبحانه وهو سبحانه متصف بصفات الكمال، فكيف والمسيح ليس هو نفس الكلام، فإن المسيح جوهرٌ قائم بنفسه، والكلام صفة قائمة بالمتكلم، وليس هو نفس الرب المتكلم، فإن الرب المتكلم هو الذي يسمونه الأب، والمسيح ليس هو الأب عندهم بل الابن، فضلوا في قولهم من جهات:

منها: جعل الأقانيم ثلاثة، وصفات الله لا تختص بثلاثة

ومنها: وصف الصفة بالابن، ولو كان لفظ الابن يستعمل في صفة الله لسميت حياته ابنًا وقدرته ابنًا، فتخصيص العلم بلفظ الابن دون الحياة خطأ آخر.

ومنها: جعل الصفة خالقة، والصفة لا تخلق.

ومنها: جعلهم المسيح نفس الكلمة، والمسيح خلق بالكلمة، فقيل له كن فكان.

روح القدس والحياة

يقول الإمام ابن تيمية مناقشًا حقيقة الأقنوم الثالث: (ثم ذكرتم في عقيدة أمانتكم أنكم: تؤمنون بروح القدس الرب المحيي. فأثبتُّم ربًّا ثالثًا..

قلتم: المنبثق من الآب.

والانبثاق: الانفجار، كالاندفاق والانصباب ونحو ذلك، يقال: بَثَقَ السيل موضع كذا يبثقه بثقًا.. أي: خرقه وشقَّه، فانبثق: أي انفجر، فاقتضى ذلك أن يكون هذا الرب المحيي انفجر من الأب واندفق منه.

ثم قلتم: هو مع الأب مسجود له وممجد ناطق في الأنبياء.

فجعلتموه مع الأب مسجودًا له، فأثبتُّم إلهًا ثالثًا يُسجَد له، ومعلوم أن حياة الله التي هي صفته ليست منبثقة منه، بل هي قائمة به، لا تخرج عنه ألبتة، وهي صفة لازمة له لا تتعلق بغيره، فإن العلم يتعلق بالمعلومات، والقدرة بالمقدورات، والتكليم بالمخاطبين، بخلاف التكلم فإنه صفة لازمة؛ يقال: علم الله كذا، وقدر الله على كل شيء، وكلم الله موسى.

وأما الحياة فاللفظ الدال عليها لازمٌ لا يتعلق بغير الحي، يقال: حيا يحيا حياة، ولا يقال: حيا كذا ولا بكذا، وإنما يقال: أحيا كذا، والإحياء فعلٌ غير كونه حيا.

ثم جعلتم روح القدس هذا ناطقًا في الأنبياء عليهم السلام، وحياة الله صفة قائمة به لا تحل في غيره، وروح القدس الذي تكون في الأنبياء والصالحين ليس هو حياة الله القائمة به، ولو كان روح القدس الذي في الأنبياء هو أحد الأقانيم الثلاثة لكان كل من الأنبياء إلها معبودًا قد اتحد ناسوته باللاهوت كالمسيح عندكم..!

فإن المسيح لما اتحد به أحد الأقانيم صار ناسوتًا ولاهوتًا، فإذا كان روح

القدس الذي هو أحد الأقانيم الثلاثة ناطقًا في الأنبياء.. كان كل منهم فيه لاهوت وناسوت كالمسيح، وأنتم لا تقرون بالحلول والاتحاد إلا للمسيح وحده.. مع إثباتكم لغيره ما ثبت له..!!

فقولهم: نؤمن بروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب الذي هو مع الأب مسجود له وممجد، ناطق في الأنبياء..

يمتنع أن يقال هذا في حياة الرب القائمة به، فإنها ليست منبثقة منه كسائر الصفات، إذ لو كان القائم بنفسه منبثقا.. لكان علمه وقدرته وسائر صفاته منبثقة منه، بل الانبثاق في الكلام أظهر منه في الحياة، فإن الكلام يخرج من المتكلم، وأما الحياة فلا تخرج من الحي..

فلو كان في الصفات ما هو منبثق.. لكان الصفة التي يسمونها الابن - ويقولون: هي العلم والكلام، أو النطق والحكمة- أولى بأن تكون منبثقة من الحياة التي هي أبعد عن ذلك من الكلام.

وقد قالوا أيضًا: إنه مع الأب مسجود له وممجد..

والصفة القائمة بالرب ليست معه مسجود لها..

وقالوا: هو ناطق في الأنبياء.

وصفة الرب القائمة به لا تنطق في الأنبياء، بل هذا كله صفة «روح القدس» الذي يجعله الله في قلوب الأنبياء، أو صفة ملك من الملائكة كجبريل، فإذا كان هذا منبثقا من الأب، والانبثاق: الخروج.. فأي تبعيض وتجزئة أبلغ من هذا..؟!

وإذا شبهوه بانبثاق الشعاع من الشمس كان هذا باطلاً من وجوه:

منها: أن الشعاع عرض قائم بالهواء والأرض، وليس جوهرًا قائمًا بنفسه، وهذا عندهم حي مسجود له، وهو جوهر.

ومنها: أن ذلك الشعاع القائم بالهواء والأرض ليس صفة للشمس ولا قائمًا بها، وحياة الرب صفة قائمة به.

ومنها: أن الانبثاق خصوا به روح القدس، ولم يقولوا في الكلمة إنها منبثقة، والانبثاق لو كان حقًّا.. لكان بالكلمة أشبه منه بالحياة..!

وكلما تدبر العاقل كلامهم في الأمانة وغيرها وجد فيه من التناقض والفساد ما لا يخفى إلا على أجهل العباد.. ووجد فيه من مناقضته التوراة والإنجيل وسائر كتب الله ما لا يخفى من تدبر هذا وهذا.. ووجد فيه من مناقضة صريح المعقول ما لا يخفى إلا على معاند أو جهول..

فقولهم متناقض في نفسه، مخالف لصريح المعقول، وصحيح المنقول عن جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين).

وقد احتج بعض النصارى بقوله تعالى: **(إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)** [النساء: 171] على أقنومية الروح القدس، فيقال لهم: أن «منه» هاهنا تعني من خلقه وإيجاده، كقوله تعالى: **(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ)** [الجاثية: 13]، وليست «من» لبيان الجنس.

وقوله تعالى: **(قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي)** ليس نصًّا في أن الروح بعض الأمر ومن جنسه.. بل قد تكون لابتداء الغاية إذ كونت بالأمر، وصدرت عنه.. وهذا معنى جواب الإمام أحمد في قوله: **(وَرُوحٌ مِّنْهُ)** حيث قال: **(وَرُوحٌ مِّنْهُ)** يقول: مِنْ أَمْرِه كان الروح منه، كقوله: **(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ)** [الجاثية: 13].

ونظير هذا أيضًا قوله: **(وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ)** [النحل: 53].

فإذا كانت المسخرات والنعم من الله، ولم تكن بعض ذاته بل منه صدرت-

لم يجب أن يكون معنى قوله في المسيح: **(وَرُوحٌ مِّنْهُ)**؛ أنه بعض ذات اللّه.

ولأجل حسم هذه القضية وَرَدَ التأكيد على عبودية روح القدس، حيث يقول الله عز وجل: **(وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)** [سبأ: 23].

وتفسيرًا لهذه الآيات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي، أخذت السموات منه رجفة -أو قال رعدة- شديدة خوف أمر الله، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدًا، فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبرائيل على الملائكة فكلما مر بسماء قالت ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبرائيل؟ فيقول جبرائيل: قال الحق وهو العلي الكبير، قال: فيقولون كلهم مثل ما قال جبرائيل، فينتهي جبرائيل بالوحي حيث أمره الله**»[1].

وعن قتادة: فتَفْرَقُ الملائكة -أو تفزع- مخافة أن يكون شيء من أمر الساعة.

في هذا الحديث نرى أثر سماع كلام الله على السموات وأهلها وجبريل والملائكة، وهو ما يتناسب مع عظمة الله وجلاله، خلافًا لادعاء نزول الله وتجسده سبحانه في مخلوق..!

واختصاص جبرائيل بالذكر فيمن يصاب بالفزع ويخر ويسجد، ثم كونه أول من يرفع رأسه ليكلمه الله من وحيه بما شاء- إثبات لأنه مخلوق لله، ذو

---

(1) أخرجه الطبري (91/22)، وابن خزيمة في (التوحيد وإثبات الصفات) ص95، الطبعة المنيرية، والبيهقي في الأسماء والصفات (326/1) وابن أبي عاصم في السنة (227/1)، وقال الهيثمي في المجمع (95/7): رواه الطبراني عن شيخه يحيى بن عثمان ابن صالح، وقد وثق، وتكلم فيه من لم يسم بغير قادح معين، وبقية رجاله ثقات. وضعفه الألباني في ظلال الجنة.

قَدْرٍ عنده، ونفي لفرية الأقنوم الثالث..!

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبرائيل: **«ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ قال: فنزلت (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا * رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) [مريم: 66-67]»**[1].

وقوله: **(لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا)** قيل: المراد ما بين أيدينا أمر الدنيا، وما خلفنا أمر الآخرة، **(وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ)** ما بين النفختين، وقيل: **(لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا)** ما يستقبل من أمر الآخرة **(وَمَا خَلْفَنَا)** أي: ما مضى من الدنيا **(وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ)** أي: ما بين الدنيا والآخرة.

(1) أخرجه البخاري (4362، 6901) عن ابن عباس.

بطلان الاحتجاج بمثل الشمس على التثليث

قال: (فأما احتجاجكم بالشمس وأنها شيء واحد له ثلاثة معان، وتشبيهكم ما يقولونه في الثلاثة الأقانيم بها فإن ذلك تمويه لا يصح؛ لأن نور الشمس لا يحد بحد الشمس، وكذلك حرها لا يحد بحد الشمس، إذ كان حد الشمس جسمًا مستديرًا مضيئًا مسخنًا دائرًا في وسط الأفلاك دورانًا دائمًا، ولا يتهيأ أن يحدَّ نورها وحرها بمثل هذه الصفة، ولا يقال: إن نورها أو حرها جسمٌ مستدير مضيء مسخن دائم الدوران، ولو كان نورها وحرها شمسًا حقًّا من شمس حق من جوهر الشمس كما قالت الشريعة في المسيح: إنه إله حق من إله حق من جوهر أبيه- لكان ما قلتم له مثلاً تامًّا، والأمر مخالف لذلك، فلا يشبهه ولا يقع القياس عليه، والحجة منكم فيه باطلة).

ومن أمثلة مكر الجدل: أن يضرب للأقانيم مثلاً لا ينطبق عليها، فتنعكس القناعة بالمثل على الموضوع المضروب له المثل «الأقانيم»، فيقول المجادل.. إن مَثَلَ الأقانيم الثلاثة مثل الشمس.. الشمس ذاتها وضوءها وحرارتها، وهي شيء واحد.

ومثل «الشمس» لا يطابق الموضوع المضروب له المثل «الأقانيم».

وفي ذلك يقول ابن تيمية: (وهم تارة يشبهون الأقنومين «العلم والحياة» التي يسمونها «الكلمة وروح القدس» بـ«الضياء والحرارة» التي للشمس مع الشمس، ويشبهون ذلك بـ«الحياة والنطق» الذي للنفس مع النفس، وهذا تشبيه فاسد؛ فإنهم إن أرادوا بالضياء والحرارة ما يقوم بذات الشمس فذلك صفة للشمس قائمة بها لم تحل بغيرها، ولم تتحد بغيرها، كما أن صفة النفس كذلك.. هذا إن قيل إن الشمس تقوم بها حرارة وإلا فهذا ممنوع.. والمقصود هنا بيان فساد كلامهم وقياسهم..

وإن أرادوا ما هو بائن عن الشمس قائم بغيرها كالشعاع القائم بالهواء والأرض والحرارة القائمة بذلك كان هذا دليلا على فساد قولهم من وجوه:

منها: أن هذه أعراض منفصلة بائنة عن الشمس قائمة بغيرها لا بها، ونظير هذا ما يقوم بقلوب الأنبياء من العلم والحكمة والوحي الذي أنذروا به، وعلى هذا التقدير فليس في الناسوت شيئًا من اللاهوت، وإنما فيه آثار حكمته وقدرته.

ومنها: أن الحرارة والضوء القائم بالهواء والجدران أعراض قائمة بغير الشمس، والكلمة وروح القدس عندهم هما جوهران.

ومنها: أن هذا ليس هو الشمس ولا صفة من صفات الشمس «القائمة بها»، وإنما هو أثر حاصل في غير الشمس بسبب الشمس، ومثل هذا لا ينكر قيامه بالأنبياء والصالحين، ولكن ليس للمسيح عليه السلام بذلك اختصاص، فما حل بالمسيح حل بغيره من المرسلين، وما لم يحل بغيره لم يحل به، فلا اختصاص له بأمر يوجب أن يكون إلها دون غيره من الرسل، ولا هنا اتحاد بين اللاهوت والناسوت، كما لم تتحد الشمس ولا صفاتها القائمة بها بالهواء والأرض التي حصل بها الشعاع والحرارة).

ولمواجهة مكر الجدل وتراكم الخبرات في الجانب النصراني.. ينبغي جمع الخبرة من ممارسة الأفراد في هذا المضمار، ومتابعة تطورات الحالة الفكرية للخصوم، مثل انتقالهم من استخدام مثل الشمس لإثبات بدعة الأقانيم إلى بدعة «الوحدانية الجامعة».

والتي يدَّعون فيها أن الواحد يتضمن داخله الأقانيم الثلاثة..!![1]

(1) راجع مناقشة هذا الهراء في الباب الثاني.

وكنتيجة لاستحالة استيعاب قول النصارى بتناقضاته وغموضه.. فقد ارتكزت محاولاتهم في طرح زعمهم على ضرب مثل اشتهر عندهم، حتى بلغ في شهرته حد موضوع الزعم ذاته، وهو تشبيه العلاقة بين الأقانيم الثلاثة بالعلاقة بين الشمس وحرارتها وشعاعها، مما تطلب إثبات بطلان هذا التمثيل..

فيقول الإمام ابن تيمية: (وهم تارة يشبهون الأقنومين: العلم والحياة -التي يسمونها الكلمة- وروح القدس، بالضياء والحرارة التي للشمس مع الشمس، ويشبهون ذلك بالحياة والنطق الذي للنفس مع النفس..

وهذا تشبيه فاسد؛ فإنهم إن أرادوا بالضياء والحرارة ما يقوم بذات الشمس.. فذلك صفة للشمس قائمة بها لم تحل بغيرها، ولم تتحد بغيرها، كما أن صفة النفس كذلك -هذا إن قيل إن الشمس تقوم بها حرارة- والمقصود هنا بيان فساد كلامهم وقياسهم.

وإن أرادوا ما هو بائن عن الشمس قائم بغيرها -كالشعاع القائم بالهواء والأرض، والحرارة القائمة بذلك- كان هذا دليلاً على فساد قولهم من وجوه:

منها: أن هذه أعراض منفصلة بائنة عن الشمس قائمة بغيرها.. لا بها، ونظير هذا ما يقوم بقلوب الأنبياء من العلم والحكمة والوحي الذي أنذروا به، وعلى هذا التقدير فليس في الناسوت شيئًا من اللاهوت، وإنما فيه آثار حكمته وقدرته.

ومنها: أن الحرارة والضوء القائم بالهواء والجدران.. أعراض قائمة بغير الشمس، والكلمة وروح القدس عندهم هما جوهران.

ومنها: أن هذا ليس هو الشمس ولا صفة من صفات الشمس، وإنما هو أثرٌ

حاصل في غير الشمس بسبب الشمس؛ فإن الشعاع القائم بالهواء والأرض والجبال والشجر والحيطان ليس هو قائم بذات الشمس، والقائم بذات الشمس ليس قائمًا بالهواء والأرض.

فإن قالوا: بل ما يقوم به من العلم يفيض منه على قلوب الأنبياء علوم كما يفيض الشعاع من الشمس..

قيل لهم: لا اختصاص للمسيح بهذا، بل هذا قدر مشترك بينه وبين غيره من الأنبياء، وليس في هذا حلول ذات الرب ولا صفته القائمة به بشيء من مخلوقَّاته، ولا أن العبد بما حل فيه من العلم والإيمان يصير إلهًا معبودًا..!

ومثل هذا لا يُنكَر قيامه بالأنبياء والصالحين، ولكن ليس للمسيح عليه السلام بذلك اختصاص، فما حَلَّ بالمسيح حل بغيره من المرسلين، وما لم يحل بغيره لم يحل به، فلا اختصاص له بأمر يوجب أن يكون إلهًا دون غيره من الرسل، ولا هنا اتحاد بين اللاهوت والناسوت، كما لم تتحد الشمس ولا صفاتها القائمة بها بالهواء والأرض التي حصل بها الشعاع والحرارة)[1].

وصفة الرب القائمة به لا تنطق في الأنبياء، بل هذا كله صفة «روح القدس» الذي يجعله الله في قلوب الأنبياء، أو صفة ملك من الملائكة كجبريل، فإذا كان هذا منبثقا من الأب، والانبثاق: الخروج.. فأي تبعيض وتجزئة أبلغ من هذا..؟!

وإذا شبهوه بانبثاق الشعاع من الشمس كان هذا باطلاً من وجوه:

منها: أن الشعاع عرض قائم بالهواء والأرض، وليس جوهرًا قائمًا بنفسه،

(1) الجواب الصحيح (219/1).

وهذا عندهم حي مسجود له، وهو جوهر.

ومنها: أن ذلك الشعاع القائم بالهواء والأرض ليس صفة للشمس ولا قائمًا بها، وحياة الرب صفة قائمة به.

ومنها: أن الانبثاق خصوا به روح القدس، ولم يقولوا في الكلمة إنها منبثقة، والانبثاق لو كان حقًّا.. لكان بالكلمة أشبه منه بالحياة..!

وكلما تدبر العاقل كلامهم في الأمانة وغيرها وجد فيه من التناقض والفساد ما لا يخفى إلا على أجهل العباد.. ووجد فيه من مناقضته التوراة والإنجيل وسائر كتب الله ما لا يخفى من تدبر هذا وهذا.. ووجد فيه من مناقضة صريح المعقول ما لا يخفى إلا على معاند أو جهول..

فقولهم متناقض في نفسه، مخالف لصريح المعقول، وصحيح المنقول عن جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين).

****

يراجع هذا الموضوع بتوسع في كتاب " الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح " للإمام العالم شيخ الإسلام ابن تيمية